القسم الادبي

﴿ أأحسن الشعر أكذبه ام اصدقه ﴾

« نموذج آخر من اسرار البلاغة »

قال عبد القاهر بعد كلام : وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشيئين فى وصف علة الحكم يريدونه وان لم يكن فى المعقول ومقتضيات العقول ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يبرم او ينقض من قضية وان يأتى على ما صيره قاعدة واساساً بينة عقلية بل تسليم مقدمته التى اعتمدها بينة كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه الا لونه وتناسينا سائر المعانى التى لها كره ومن اجلها عيب . وكذلك قول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه

اراد كلفتمونا ان نجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعى الا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجئ الى موجبه ، ولا شك انه الى هذا النحو قصد ، واياه عمد ، إذ يبعد ان يريد بالكذب اعطاء الممدوح حظاً من الفضل والمؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الاكثار محله ، لان هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ، وانما يكذب فيه القائل بالرجوع الى حال المذكور واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته او ضعته ، ومعرفة محله ومرتبته » . وكذلك قول

من قال : « خير الشعر اكذبه » فهذا مراده لان الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بل يَنْحَلُ الوضيع من الرفعة ما هو منه عار ، او يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر وبخيل سخّاه وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث وذى ضعة اوطأه قمة العيوق[1] وغبي قضى له بالفهم ، وطائش ادعى له طبيعة الحكيم ، ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تُنْتَقَدُ دنانيره وتنشر دياجيه ، ويفتق مسكه فيضوع أريجه ،

واما من قال فى معارضة هذا القول « خير الشعر اصدقه » كما قال :

وان أحسن بيت انت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز ان يراد به ان خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروّض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبيح والحسن فى الافعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل الا بما فيه . والاول أولى لانهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعي الشعر .

فمن قال خيره اصدقه كان تركُ الاغراق والمبالغة والتجوز الى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من العقل على اصل صحيح ، أحبَّ اليه ، وآثر عنده ، اذا كان ثمره احلى ، واثره أبقى . وفائدته اظهر ، وحاصله اكثر ، . ومن قال اكذبه ذهب الى ان الصنعة انما يُمَدُّ باعها ، وينشر

---

(١) العيوق نجم احمر مضيء فى طرف المجرة الايمن يتلو الثريا لا يتقدمها وقمة الشيء اعلاه .

شعاعها ، ويتّسع ميدانها ، وتتفرع افنانها ، حيث يعتمد الاتّساع والتخييل ، ويدّعى الحقيقة فيما اصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطّف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والاغراق فى المدح والذم والوصف والبث والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والاغراض وهناك يجد الشاعر سبيلاً الى ان يبدع ويزيد ، ويبدى فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعانى متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهى ،

واما القبيل الاول فهو فيه كالمقصور المدانى قيده ، والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده ، ثم هو فى الاكثر يورد على السامعين معانى معروفة وصوراً مشهورة ، ويتصرف فى اصول هى وان كانت شريفة فانها كالجواهر تُحفظ اعدادها ، ولا يُرجى ازديادها ، وكالأعيان الجامدة التى لا تنمى ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائعة لا تمتّع بجنى كريم ،

هذا ونحوه يمكن ان يتعلق به فى نصرة التخييل وتفضيله ، والعقل يعد على تفضيل القبيل الاول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلِجٌ وإن قضى عليه [1] هذا ومن سلم أن المعاني المعرقة فى الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ، فى حكم الجامد الذى لا ينمى ، والمحصور الذى لا يزيد ، ؟ وان اردت ان

(١) المفلج (اسم فاعل) الفائز الظافر يقال فلج (كنصر وضرب) وافلج لازم ويتعدى بعلى فيقال فلج وافلج على خصمه اي استظهر وانتصر

تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر الى قول ابى فراس :

وكنا كالسهام اذا أصابت مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقلياً عريقاً فى نسبه ، معترقاً بقوة سببه ، وهو على ذلك من فوائد ابى فِرَاسٍ التى هو أبو عذرها ، والسابق الى اثارة سرها ؛[1]

واعلم ان الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل لان المستعير لا يقصد الى اثبات معنى اللفظة المستعارة وانما يعمد الى اثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك فى ان لا مدخل للاستعارة فى هذا الفن وهى كثيرة فى التنزيل على ما لا يخفى كقوله عز وجل : « واشتعل الرأس شيباً » ثم لا شبهة في ان ليس المعنى على اثبات الاشتعال ظاهراً وانما المراد اثبات شبهه . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة المؤمن » ليس على اثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل ، لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سبباً للعلم بما لولاها لم يعلم لان ذلك العلم طريقه الرؤية ولا سبيل الى ان يرى الانسان وجهه الا بالمرآة وما جرى مجراها من الاجسام الصقيلة فقد جمع بين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة وهى ان المؤمن ينصح اخاه ويريه الحسن من القبيح كما يُري المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « اياكم وخضراء الدِّمَنِ » معلوم ان ليس القصد اثبات معنى ظاهر اللفظين ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن

---

(١) يقال (هو ابو عذر هذا الكلام) اى هو اول من اقتضبه واخترعه . ويقال (ما انت بذي عذر هذا الكلام) اى لست بأول من اقتضبه . والعذر هنا بالضم مخفف من العذرة وهى البكارة بحذف التاء لجريه مثلا

الظاهر مع خبث الاصل

واذا كان هـذا كذلك بان منه ايضاً ان لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح والمجال الواسع وأن ليس الامر على ما ظنه ناصر الاغراق والتخييل الخارج على ان يكون الخبر على خلاف المخبَر من انه انما يتسع المقال ويفتن وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها ، وتكثر اغصانها وتتشعب فروعها ، اذا بسط من عنان الدعوى فادعى ما لا يصح دعواه ، واثبت ما ينفيه العقل ويأباه ،

وجملة الحديث الذي اريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر فيه امرا هو غير ثابت اصلاً ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى . اما الاستعارة فان سبيلها سبيل الكلام المحذوف في انك اذا رجعت الى أصله وجدت قائله وهو يثبت امراً عقلياً صحيحاً ويدعي دعوى لها شبيح في العقل . وستمر بك ضروب من التخييل هي اظهر أمراً في البعد عن الحقيقة تكشف وجهاً في انه خداع للعقل وضرب من التزويق فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل وازيدك حيثئذ ان شاء الله كلاماً في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم : خير الشعر اكذبه . وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه في اتساع وتجوز فاعرفه . وكيف دار الامر فانهم لم يقولوا : خير الشعر اكذبه وهم يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط نحو ان يصف الحارس بأوصاف الخليفة ويقول للبائس المسكين ، : انك امير العراقين ، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها وتدقيق في المعاني يحتاج معه الى فطنة للصواب . وأعود الى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقي وغير الحقيقي اه النموذج المراد